حماس وحماسة

للدكتور ناصر الدين الأسد

(١)

ليست قيمة البحث والتنقيب عن أحد الألفاظ محصورة فى ذلك اللفظ وحده ، وإلا كان الأمر أهون من أن يشغل به أحدٌ نفسه ويضيع وقته فضلاً عن أن يشغل به غيره ويضيع أوقاتهم . فحين تحدثنا فى مناسبات سابقة عن «معاجم» ورأيناها الجمعَ الصحيح لـ«معجم»[١]، وعن «نواد» ورأيناها جمعاً صحيحاً فى القياس لِـ«ناد» وأنَّ «أندية» هى جمع «ندىً» وليست جمع «ناد»[٢]، وعن «وديان»[٣] ورأيناها جمع كثرة لـ«وادٍ» يستوى فى صحته مع «أودية» التى هى جمع قلة للفظ نفسه — حين تحدثنا عن كل ذلك قصدنا إلى أمرين هما فى رأينا قيمة تستحق هذا العناء :

أولهما — أن هذه الجموع التى شاعت تخطئتها بين جمهرة العلماء وأهل اللغة فى زماننا، هى وحدها الشائعة الغالبة على ألسنة الناس وفى كتاباتهم فى جميع البلاد العربية خلال هذا العصر ، وحتى أولئك الذين يحرصون — عن وعى وتعمد وفى تكلف ومشقة — على تجنب استعمالها مسايرة منهم للرأى الشائع فى تخطئتها ، لا يلبثون حين ينساقون مع طبعهم وسليقتهم أن تجرى بها ألسنتهم وأقلامهم . فنجد فى الحديث الواحد والمقالة الواحدة الجمعين[٤] معا . وليس أدل من ذلك على استحكام هذه الجموع وتمكنها فى الاستعمال .

وثانيهما — أن مفرد كل جمع من هذه الجموع عربى صحيح ، وأن صيغة جمعه — الذى ذهبوا إلى تخطئته — هى من الصيغ التى جاء على مثالها جموعُ عدد كبير من المفردات بُنيت على بناء هذا المفرد نفسه ، حتى كانت هذه الصيغة قياسية مطردة — فيما نص عليه القدماء أنفسهم — أو كالمطردة لكثرتها ، وإن لم نجد هذا الجمع ذاته فيما وصلنا من كلامهم .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء الخامس والعشرون .

(٢) المرجع السابق الجزء السابع والعشرون

(٣) المرجع السابق الجزء التاسع والعشرون

(٤) ضربنا أمثلة على ذلك فى بعض المقالات التى أشرنا إليها فى المراجع السابقة .

هذان الأمران معاً متكاملين هما اللذان يكسبان هذا الحديث الذى نتجشم عناءه قيمة وخطراً ، لأنهما يخرجان به من حدود الجزء إلى نطاق الكل ، ومن اللفظة ذاتها التى يدور عليها البحث إلى ظاهرة عامة حين تجتمع لهذه الظاهرة أركانها كاملة دون إغفال شىء منها وبعض هذه الأركان دقيق خفى ، إذا غفل عنه الباحث انزلق فى مهاوى الخطأ . ومن هنا جاء حرص الحريصين على ضرورة بحث كل حالة وحدها من هذه الألفاظ دون وضع قواعد مطردة يقاس عليها .

هذان الأمران المتكاملان معا هما : شيوع اللفظ شيوعاً عاماً غالباً على ألسنة أهل العصر وأقلامهم ، فى جميع الأقطار العربية ، وشيوع صيغته وبنائه فى ألفاظ كثيرة أخرى تشترك معه فى الخصائص والأركان ، مما ورد عن العرب وشاع فى استعمالهم .

وإذا كنا لا نقر مذهب التسرع إلى التخطئة لأنه يحجر على العلماء والكتّاب ويحول بين اللغة و التطور فى مسار طبيعى ، وينفى من اللغة ألفاظاً هى منها فى الحقيقة ، فلا بد من التنبيه إلى خطر المذهب المخالف الذى يدعو إلى التوسع فى قبول ألفاظ كثيراً ما تكون على قياس غير صحيح لخفاء بعض عناصره وأركانه الأساسية ، وحين لا تدعو حاجة حقيقية إلى قبولها ، وخاصة إذا لم يجتمع فى هذه الألفاظ الأمران المتكاملان اللذان أشرنا إليهما . وعلى هذا لا بد من التثبت من دقة المقياس ، ومن سلامة خطوات القياس ، حتى يكون الطريق لاحباً والهدف أمَماً .

(٢)

وحديثنا الآن مشابه لأحاديثنا السابقة داخل فى بابها ، فهو — مثلها — محصور فى صيغ الألفاظ وأبنيتها : تلك فى الجموع ، وهذا فى المصادر ، ومدارها جميعها على إلحاق ألفاظ بمثيلاتها بشروط معلومة وفى أحوال مخصوصة . وهى كلها ، بذلك ، أبعد شىء عن تناول الأساليب والعبارات ونظم الكلام ، فهذا بابٌ الحرصُ فيه أدعى والحذرُ منه أوجب لأنه متصل بروح البيان العربى ، وقد كان مدخلا لكثير من الخطأ والوهم ، ومَدْرَجَةً للعُجْمة والهُجْنة ، حتى إنى رأيت فيما كتب بعض الكاتبين — وهم منا قريب — ما يوهم أنهم يتحدثون عن ألفاظ بأعيانها ويستشهدون لها بشواهد من كلام العرب هى صحيحة فى مواضعها التى استشهدوا بها ، ثم لا يلبثون قياساً على ذلك — أن يذهبوا إلى تصويب استعمالها فى أساليب وعبارات محدثة ، والنظم غير النظم ، والاستعمال غير الاستعمال ، فخفيت عنهم فى الاستدلال دقائق ولطائف هى فى الحقيقة سر النظم ، فانتهوا بنا إلى شىء لا يمت إلى العربية بسبب ، وليس هنا موضع التفصيل وضرب الامثلة .

ثم إن هذا الحديث ، مثل الأحاديث السابقة ، يبدأ بالقياس ويقوم عليه ولكنه لا ينتهى إليه . فنحن نقيس اللفظة المفردة التى تشيع فى الاستعمال بين الجمهرة الغالبة من الناس

فى الأقطار العربية كلها ، على نظائرها فى بنائها اللغوى مما أجمع القدماء على صوابه ، وإن لم تكن هذه اللفظة المفردة مما دونوه ووصل إلينا . ونطيل فى سرد كثير من هذه النظائر لتطمئن نفوسنا إلى هذه الكثرة من جانب ، ولنجمع من جانب آخر ضروب هذه الصيغة كلها فلا تفوتنا أدقّ خوافى المشابهة بين المقيس والمقيس عليه . حتى نصل فى كل ذلك إلى حكم محدود لا نتجاوزه وهو أن هذا اللفظ الشائع اليوم والذى ذهب بعضهم إلى تخطئته لأنه لم يرد فيما دونه القدماء فى المعاجم وكتب اللغة ، هو صواب لأنه يجرى على القوالب الموروثة وتنطبق عليه القواعد الموضوعة ، وهو من كلام العرب — وإن لم يصلنا مدوّناً — لأنه جرى مجرى كلامهم وقيس عليه. وقديما قال سيبويه فى كتابه[1] : «فإنما هذا الأقلّ نوادر تحفظ عن العرب ولا يقاس عليها ، ولكن الأكثر يقاس عليه» ومن هنا جاء حرصنا على الاستكثار من جمع النظائر والأمثلة . وكذلك قال ابن جنى فى خصائصه[2] : «واعلم أن من قوّة القياس عندهم اعتقاد النحويين أن ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب» .

وإذا كنا نبدأ بالقياس ونعتمد عليه — بالمعنى الذى وضحناه — فإننا لا ننتهى إليه ، ذلك لأننا لا نعتسف الطريق فننتهى إلى وضع قاعدة عامة مطردة تشمل كل ما جاء على هذه الصيغة سواء أكان من الألفاظ الشائعة فى الاستعمال فى عصرنا أم لم يكن مستعملا شائعا ، فهدفنا ليس اختراع قواعد جامدة تخضع لها اللغة كلها بحجة التيسير والتقريب ، وإنما هدفنا الاستئناس والاحتجاج بنظائر كثيرة مما ورد فى كلام العرب ، للفظٍ يشيع استعماله فى هذا العصر بين العرب كافة ، وإن لم يُنْقَل هو نفسه إلينا ، والاستدلال من ذلك على صوابه بعد أن جرى على الألسنة وفى الكتابة واستساغه ذوق العصر .

وقد تكلفنا هذا الإطناب كلّه وأكثرنا فيه من التكرار الذى قد يَثْقُل على القارئ ، لنضع مثل هذه الدراسات فى موضعها الصحيح ونحصرها فى نطاقها الذى لا يجوز أن تتعداه بحيث لا يؤخذ منها إلا بقدر الحاجة إليها .

(٣)

واخترنا موضوعاً لهذا المقال كلمة «حماس» التى ذهب إلى تخطئتها كل من نعرف ممن نصب نفسه لتنقية اللغة من الشوائب والعثرات منذ مطلع هذا القرن ، وأولهم الشيخ إبراهيم اليازجى فى سلسلة مقالاته التى كتبها عن «لغة

(١) ج : ٢ ص: ٢١٥ — ٢١٦

(٢) ج : ١ ص : ١١٤

الجرائد»[1] ، ثم الشيخ المنذر[2] وأسعد خليل داغر[3]، وآخرهم فيما نعرف زهدى جار الله[4]، وقد أجمعوا على أن صوابها «حماسة» بالتأنيث .

ثم رأينا جماعة آخرين لا يقلّون حرصاً على لغتنا ، يردّون عليهم ويذهبون إلى صواب الكلمة بالتذكير ، غير أن هؤلاء المصوّبين اجتزأوا من الحديث بأقله ، ورتبوا نتائج على مقدمات لا تقود إليها بالضرورة ، واعتمدوا على مراجع لا يُعْتَدّ بها فى هذا المضمار — على نفعها واستيعابها — ولم يوردوا من الأقيسة وشواهدها ما يدعم مذهبهم وسنسرد أسماء ثلاثة منهم ونسوق حديثهم كاملاً على إيجازه .

فأقدم من نعرف منهم ممن تنالوا هذه الكلمة بالحديث المرحوم الأستاذ أحمد العوامرى قال [5] : « يتوهم كثير أن الحماس بمعنى الحماسة خطأ . وقد كان هذا اللفظ إلى عهد قريب شائعاً فى الصحف ، فأخذ يقل حتى كاد يختفى منها ، ولكنه شديد الشيوع الآن فى لغة التخاطب فقلما تسمع من الناس كلمة الحماسة[6]. والحماسة والحماس بمعنى واحد كما سترى. قال فى اللسان : الحماسة :المنع والمحاربة . وقال: الحماسة : الشجاعة . وفى شرح القاموس الحماسة : الشجاعة والمنع والمحاربة . وفيه : والحماس كسحاب :الشدة والمنع والمحاربة . فقد تبين لك أن اللفظين متفقان معنى ».

واتفاقهما فى المعنى أمر لم يختلف فيه أحد ، ولكن المختلف فيه هو صواب استعمال لفظ « حماس » بالتذكير . ولم يحتجّ على صحته إلا بوروده فى شرح القاموس ، وصاحب هذا الشرح مُحْدَث لا يُحتج به ، على جلال قدره ، وقيمته فيما ينقل عن غيره ، وهو لم يذكر لنا من أين أخذ الكلمة ، ولم نجدها فى كتاب قبله .

وثانيهم المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات الذى قدّم إلى مجلس مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى ٢ مايو سنة ١٩٥١ « طائفة من

---

(١) مجلة الضياء ، الجزء الثامن — ٣١ يناير ١٩٠٥ ص: ٢٢٦ والطريف انه يذكر ان العامة كلهم يقولون الحماسة.

(٢) كتاب المنذر الى المجمع العلمى العربى بدمشق ، الجزء الأول ص : ٣٢ (الطبعة الثالثة) مطبعة الاجتهاد : بيروت ١٩٢٧

(٣) تذكرة الكاتب ، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ١٩٢٣ ، ص : ٨٦

(٤) الكتابة الصحيحة ، بيروت ١٩٦٨ ، ص : ٧٦

(٥) مجلة مجمع اللغة العربية الملكى ، الجزء الأول سنة ١٩٣٤ ص : ١٦٦

(٦) قابل هذا الحكم الذى لايزال صحيحا حتّى الآن بما ذكره الشيخ ابراهيم اليازجى من أن العامة كلهم يقولون الحماسة (انظر الحاشية السابقة رقم ١) .

الألفاظ المسموعة عن المحدثين على خلاف ما سمع عن العرب الأولين فى الصيغة أو فى الدلالة فناقشها المجلس وأقر بعضها فى هذه الجلسة والبعض الآخر فى الجلسة الختامية للدورة الثامنة عشرة بعد أن درستها لجنة « الأصول » ومن هذه الكلمات :

« ٣١ — الحماس : سمع من المحدثين استعمال الحماس بدون تاء ، والمسموع عن العرب : الحماسة .

٣٢ — المران : يقول المحدثون : مران ، بدون تاء ، والمسموع عن العرب : مرانة»[١].

وثالثهم الأستاذ محمد العدنانى ، قال[٢] : « ويخطّئون من يقول : فلان كثير الحماس. ويقولون إن الصواب هو : كثير الحماسة ، ومعناها الشجاعة ...... وقال التاج فى مستدركه : الحماس هو : الشدة والمنع والمحاربة . ونقل عنه متن اللغة ذلك . أما الحماسة فقال إنها الشجاعة والمنع والمحاربة كما قال اللسان . أما الصحاح فقد قال : الحماسة : الشجاعة ، ويخطىء من يقولها : الحماس[٣] !! ولكن الوسيط قال : الحماس والحماسة : الشدة والشجاعة والمحاربة . لذا علينا (!!) أن نستعمل كلمة الحماسة والحماس دون تردد !! ما دامت الكلمتان تحملان معنى المنع والمحاربة ، حسب رأى التاج والوسيط ، والمحاربة لا تكون دون حماسة » .

ولا تعقيب لنا على هذا الكلام سوى القول إن التاج ومتن اللغة والوسيط ، كلها — على نفعها وقيمتها — ليست حجة على صواب هذا اللفظ ، لمجرد أنه ورد فيها وإن كان يجوز الاستئناس ، وليس الاحتجاج بما ورد فى التاج لأسباب نذكرها بعد قليل .

فقد بقى إذن فضل حديث عن هذا اللفظ نرى أن نورده فيما يلى .

(٤)

لم نجد كلمة « حماس » بالتذكير وفتح الحاء المهملة ، فيما وصلنا من المعاجم وكتب اللغة حتى المائة الثانية عشرة الهجرية . وأجمعت كلها على الاقتصار على « حماسة» بالتأنيث بمعنى : الشجاعة والمنع والمحاربة . وفيها أيضاً « حِماس » بكسر الحاء ، مصدر « تحامس » . إلى أن جاء محمد مرتضى الزَّبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ فذكرها فى مستدركه على القاموس قال : « ومما يستدرك عليه ... والحماس كسحاب : الشدة والمنع والمحاربة » فهل رآها الزَّبيدى فيما كان بين

---

(١) الدورة التاسعة عشرة ١٩٥٢ — ١٩٥٣ م الجلسة السادسة

(٢) معجم الأخطاء الشائعة ، ص : ٧٠ ، رقم ٢٣٦ ،

(٣) لم يذكر الجوهرى فى صحاحه لفظ « حماس » فكيف يخطئها ؟ غير أن محقق هذا المعجم الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ذكر فى الحاشية معلقا على قول الجوهرى : « والحماسة : الشجاعة » مايلى : ويخطىء من يقولها : « الحماس » . وهذا من كلام محقق الطبعة وليس من كلام الجوهرى فى الصحاح .

يديه من أصول ضاعت بعده ولم تصل إلينا أو لم نعثر عليها بعد ؟ أو هل كان يضيف في مستدركه كلمات مما جرى استعمالها وشاع في عصره والعصور القريبة السابقة عليه إذا كانت على قياس العربية في نظائرها وبنائها ، ولو لم تكن مما تضمنته كتب اللغويين ومعاجمهم ؟ والأول عندنا هوَ الأرجح لأن كلام الزَّبيدى فى مقدمته واضح فى الاقتصار عليه ، قال : « وليس لى فى هذا الشرح فضيلة أمتُّ بها ولا وسيلة أتمسك بها سوى أننى جمعت فيه ما تفرق فى تلك الكتب من منطوق ومفهوم ، وبسطت القول فيه ولم أشبع باليسير وطالب العلم منهوم ، فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أوخلل فعهدته على المصنف الأول ، وحمده وذمه لأصله الذى عليه المعول ، لأنى عن كل كتاب نقلت مضمونه فلم أبدل شيئاً فيقال : فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، بل أديت الأمانة فى شرح العبارة بالنصّ ، وأوردت ما زدت على المؤلفين بالنصّ » .

فمن أين إذن جاء بكلمة « حماس » وهى غير موجودة فى كل ما وصل إلينا من المعاجم وكتب اللغة التى اطلعنا عليها واطلع عليها غيرنا من المُحدَثين بدليل أنهم ذهبوا إلى تخطئتها لأنها لم تتضمنها تلك المعاجم والكتب؟ أحسب أن الإجابة عن هذا السؤال غير ميسورة مما فى أيدينا ، وعسى أن تكشف مقبل الأيام ما خفى عنا . وليست هذه الكلمة وحدها هى التى انفرد بذكرها صاحب التاج مما لم نجده عند غيره ، فقد أشرنا فى بحثنا عن « وديان وأودية » أنه استقل بذكر « وديان » جمعا لـ « واد » فى مستدركه .

ومن كان مثل الزَّبيدى فى علمه وجمعه واستقصائه واطلاعه ، كان حرياً بالثقة والقبول . وهذا ما فعله بعض من ذهب إلى صواب كلمة « حماس » حين اعتمدوا على ما ورد فى التاج وحده ، أما غيرهم ممن ذهبوا إلى تخطئتها فإمَّا أنهم لم يروها فى المستدرك وإمَّا أنهم لم يقنعوا بما قنع به الآخرون .

ثم إننا رجعنا إلى ما استطعنا الرجوع إليه من شعر العرب ونثرهم ، فلم نرهم يستعملون « الحماس » سوى احتمال أن يكون ذلك فى بيتين للشاعر فتيان الأسدى الشاغورى المتوفى سنة ٦١٥ هـ ، قال فى الأول [١] :

وبلغتم بالرأى ما لم يستطع
إدراكه باللأم أُسْدُ حِماسِ

وقال فى الثانى [٢] :

يجود فيُغْنى الموالى سَماحا
ويسطو فيفنى الأعادى حَماسا

(١) ديوان فتيان الشاغورى ، تحقيق أحمد الجندى ، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٧ ، ص : ٢٣٢

(٢) ص : ٢٣٦

وقد ضبط المحقق الحاء فى البيت الأول بالكسر ، وفى البيت الثانى بالفتح ، ولست أدرى ما الذى حمله على أن يخالف بينهما ، وقد ينازعه منازع أنّ الحاء فى الكلمتين مكسورة ، أو أنها فيهما كليهما مفتوحة ، فلا دليل على ذلك ، ولا حجة فيه .

ولم نجدها كذلك فى الكتب القديمة التى تتبعت أوهام الخواص فى اللغة أو لحن العوام وحرصتْ على تثقيف لسانهم . فهل مردّ ذلك إلى أن هذه الكلمة لم تكن مما استعملوه وجرت به الأقلام فلم تقع عينهم عليها لينبهوا على صحتها إن كانت خطأ ، أو أنها كانت تجرى بها أقلامهم وألسنتهم ولكنهم لم يجدوا فيها ما يستنكرونه فسكتوا عنها لصحتها ؟ سيظل هذا السؤال أيضاً بغير إجابة شأنه شأن السؤال الأول عن المصدر الذى اعتمد عليه الزبيدى فى إثبات الكلمة فى مستدركه .

فإذا كان هذا النمط من البحث عن الكلمة فى كتبنا لم ينته بنا إلى وجودها فيها ، فهل من سبيل أخرى أمامنا نسلكها لبحث صحة الكلمة ؟ أحسب أنْ نعم .

(٥)

وأول ما نلاحظه هنا أن إغفال المعاجم وكتب اللغة إيراد أحد الألفاظ لا يعنى أن ذلك اللفظ غير موجود حقاً ، أو أننا نخطئ حين نستعمله . فلم يدّعِ أحد أن تلك المعاجم والكتب قد قيدت اللغة جميعها . وما أفيد هذه الفهارس التى تلحق بالطبعات الحديثة المحققة تحقيقاً علمياً لبعض كتب تراثنا ، والتى تتضمن الألفاظ التى وردت فى تلك الكتب مما لم يرد فى المعاجم . وفضلاً عن النقص الطبيعى الذى يعتور كل عمل بشرى فيحول بينه وبين استيفاء كل شىء ، نجد هذه المعاجم والكتب قد أغفلت كثيراً من الألفاظ حين يكون بناؤها قياسياً ، وقد نصُّوا على هذا الإغفال فى مواطن متعددة من معاجمهم وكتبهم .

فإذا انتقلنا من هذا الحكم العام إلى تخصيصه بلفظى « حماس » و« حماسة » وجدنا مصادر على وزن «فَعال» بالتذكير وفتح الفاء أغفلتها المعاجم واقتصرت على ذكر المؤنث « فَعالة » ومن أدلّ ما عثرنا عليه فى هذا الباب تعليق للأستاذ محمود محمد شاكر على كلام لمحمد بن سلام فى طبقاته . قال ابن سلام [١] : وكان الذى يُسْمِعُ الناسَ عنه صلى الله عليه، ربيعةُ بن أميةَ بن خلف الجُمَحِيّ ، وكان فى صوته رَفاع » وقال الأستاذ محمود محمد شاكر : « رفاعة الصوت ورفاعته (بالفتح والضم) جهارته ، ورجل رفيع الصوت . ولم أجد (الرفاع) فى المعاجم ، ولكن فَعال وفَعالة يتعاقبان كثيراً فى المصادر فيما تتبعته منها » .

(١) طبقات فحول الشعراء ، قراءة محمود محمد شاكر وشرحه ، ١ : ٧٤ ، مطبعة المدنى بالقاهرة سنة ٧٤

فهذا مثل واحد من المصادر التى أغفلتها المعاجم على وزان «حَماس» المذكر واكتفت بالنص على مؤنثه ، وسترد معنا أمثلة أخرى بعد قليل . ولكننا نحب أن نتتبع كلام الأستاذ محمود ، ونتوكأ على العبارة الأخيرة منه ، لننتقل من خلالها إلى الملاحظة الثانية ، وهى « تعاقب فعال وفعالة كثيراً فى المصادر ». وفى هذا نستشهد بنص ثمين لسيبويه قال[1] : «وقالوا : سَعِدَ يَسْعَدُ سَعادة ، وشَقِيَ يَشْقَى شقاوة .... وقالوا : الشقاء ، كما قالوا : الجمال واللذاذ ، حذفوا الهاء استخفافا» . ونقل الفيومى هذا الكلام فى المصباح المنير (جمل) فقال : « قال سيبويه : الجمال رقة الحسن ، والأصل جمالة بالهاء مثل صبح صباحة ، لكنهم حذفوا الهاء تخفيفاً لكثرة الاستعمال » . ولست أدرى أهذا الذى أورده الفيومى هو الكلام الذى أوردناه لسيبويه ولكن الفيومى زاد فيه ، أو هو كلامٌ غيرُه بمعناه لسيبويه فى موطن آخر من كتابه لم نعثر عليه ؟ غير أن المعنى واحد وكأنما ذهب ابن منظور أيضا هذا المذهب حين قال : « وَسُمَ الرجل (بالضم) وسامة ووَساما ، بحذف الهاء » كأنه يرى أيضاً أن وجود الهاء هو الأصل وحذفت للتخفيف .

فهل أصل هذه المصادر حقاً هو « فعالة » بالهاء ، ثم حذفت هذه الهاء تخفيفاً ؟ وهل هذا هو السبب فى التعاقب الكثير فى هذه المصادر بين فَعال وفَعالة؟ وإذا كان ذلك كذلك فهل يجوز أن نعتمد على كل ما قدمنا فى قبول « حماس » ؟

ونضيف وجها آخر لصيغة « فعال » فى المصادر ، وذلك ما أورده ابن منظور فى اللسان (سلم) قال : « السلام والسلامة : البراءة ، .... قال ابن قتيبة : يجوز أن يكون السلام والسلامة لغتين كاللذاذ واللذاذة ... ويجوز أن يكون السلام جمع سلامة » . وهو وجه نكتفى بإيراده استيفاء للبحث دون الخوض فى تفصيلاته .

فنحن إذن أمام ثلاثة مذاهب للقدماء فى تفسير هذا التعاقب بين « فَعال » و « فَعالة » فى المصادر . المذهب الأول لسيبويه ، وفيه يرى أن الأصل « فَعالة » بالهاء ثم حذفوا هذه الهاء تخفيفا لكثرة الاستعمال فصار المصدر على صيغة « فَعال » بالتذكير . أما المذهبان الآخران فهما لابن قتيبة ، أحدهما : أنهما لغتان ، أى أن بعض القبائل تستعمل صيغة « فعالة » وبعضها يستعمل صيغة « فَعال » ، والآخر : أن صيغة « فَعال » جمع « فعالة » .

ولسنا بسبيل استقصاء البحث فى هذه التفسيرات وترجيح أحدها على الآخر ، وحسبنا أن نشير إلى أن تعاقب « فعال » و « فعالة » فى المصادر قد كان ظاهرة شائعة حتى احتاجوا إلى أن يتلمسوا لها تفسيرات مختلفة .

---

(١) الكتاب ٢ : ٢٢٥

وهذه الأمثلة التى أوردوها لها نظائر كثيرة لا سبيل إلى جمعها على وجه الحصر ، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ، فحسبنا منها نماذج تدل على أنها كثيرة متواترة . ونذكر هنا أمثلتهم وبعض نظائرها الأخرى :

براءة وبراء ، جمالة وجمال ، جلالة وجلال ، جهارة وجهار[١] ، رجاحة ورجاح ، رضاعة ورضاع ، رفاعة ورفاع[٢] ، سفالة وسفال ، سقامة وسقام ، سماحة وسماح ، سفاهة وسفاه ، سماعة وسماع ، سلامة وسلام ، شقاوة وشقاء ، شماتة وشمات ، صغارة وصغار[٣] ، ضلالة وضلال ، عفافة وعفاف ، علاوة وعلاء ، كلالة وكلال ، ملاءة وملاء[٤] ، لباثة ولباث ، لذاذة ولذاذ ، وثاقة ووثاق[٥] ، وسامة ووسام ، وقارة ووقار . وكلها بفتح أولها .

فهل نستطيع بعد هذا كله أن نقول إن من يستعمل لفظ « حماس » فى كلامه أو كتابته هو فى مأمن من التخطئة ؟ وهل نستطيع أن نمضى خطوة أبعد ونقول : إن كثرة تعاقب « فَعال » و « فَعالة » وتواترهما فى المصادر عند القدماء تجعلنا نحجم عن تخطئة من يستعمل صيغة « فعال » ولو لم تذكرها المعاجم وكتب اللغة واقتصرت على إيراد فَعالة ، وذلك بقيد لابد منه وهو أن تكون اللفظة التى على هذه الصيغة قد كثر دورانها على اللسان وفى الكتابة فى الأقطار العربية كلها حتى أصبحت من مألوف ذوق أهل العصر وشائع استعمالهم مثل لفظتى : حَماس ومَران ، اللتين لم نعثر عليهما حتى الآن فى كتب القدماء وشعرهم ، واقتصروا فيهما على حماسة ومرانة ؟

ناصر الدين الأسد
عضو المجمع

---

(١) لم تذكر المعاجم « جهاراً » بفتح الجيم عند الحديث عن مصدر الفعل ، وذكرته فى درج الكلام عند الحديث عن قولهم : «لقيه نهارا جهارا» ضبطوا الجيم بالكسر وقالوا : ويفتح ، وفى اللسان : بكسر الجيم وفتحها وأبى ابن الأعرابى فتحها .

(٢) رفع الزرع يرفعه (بفتح الفاء فيهما) رفعا ورفاعة ورفاعا (بفتح الراء فيها كلها) : نقله من الموضع الذى يحصده فيه الى البيدر (اللسان) .

(٣) لم تذكر المعاجم « الصغار » عند ايراد مصادر الفعل ، وأورده ابن منظور فى درج الكلام بعد صفحتين من بداية المادة ، قال : والصغار مصدر الصغير فى القدر .

(٤) ملؤ الرجل يملؤ (بفتح اللام فيهما) ملاءة ، فهو مليء .. بين الملاء والملاءة ، ممدودان (اللسان) .

(٥) قال فى اللسان : الوثاقة : مصدر الشيء الوثيق المحكم ، والفعل اللازم : يوثق وثاقة ، والوثاق : اسم الايثاق ، تقول : أوثقته إيثاقا ووثاقا .